منهج الدعوة إلى السلم مع الآخر عند الرومي والنورسي
دراسة مقارنة

الملخص

د. عارف الزغول[1] / د. عبدالكريم علي جرادات[2]

يعدُّ السلم من أهم العناصر الأخلاقية في الموروث الصوفي، وهو عندهم سلم بلا شرط أو بدل لكل أفراد البشر، وبصرف النظر عن جنسهم أو لونهم أو نسبهم أو مذهبهم أو دينهم، فالسلم في المسلك الصوفي فوق القدرة والخشونة؛ لأن أثرهما سطحي ومؤقت وردة الفعل عليهما عنيفة، بينما السلم فهو عميق دائم هدفه التعايش السلمي واحترام الآخر والتخلي عن التعصب بكل أشكاله، وقد حرص الرومي والنورسي، على الدعوة إلى السلم والسلام وكان فكرهما متسامحًا متساهلًا مع كل الأفكار والمعتقدات وحرِص كل منهما حسب منهجه، على إقرار السلم والصلح بين المسلمين وبين بني البشر كافة، وتبنى مولانا الرومي التصوف الإسلامي المتمثل بالطريقة القائمة على الشريعة، وعدّ الطريقة السبيل الوحيد للحوار بين الأديان والمذاهب والمعتقدات والأعراق والتفاهم بينهم، فمن الصعوبة بمكان جمع شخصين من ديانتين مختلفتين للحوار بواسطة الشريعة، وهنا تبرز ليبرالية التصوف وحرية الطبع فيه، فكان يتساوى في الطريقة المجوسي والبرهمي والمسيحي واليهودي والمسلم، وحتى عابد الأصنام، فالجميع كانوا يجلسون قبالة بعضهم في خانقاه واحدة، ويشتركون في السماع والذكر الخفي والجليّ. ولعلّ ما يدلل على مصداقية ذلك ما نجده في الهند؛ فالمسلمون والهندوس إخوة في الإنسانية ومتساوون في طرق التصوف، أما الإمام النورسي، المتأثر بالرومي، فخالفه واعتمد على القرآن والشريعة وعلى العقل والمنطق في دعوته للسلم، دون أن يغفل الطريقة، وأثرها في إقامة السلم والإخاء بين المسلمين.

سيعمل البحث على دراسة مواطن الدعوة للسلم والإخاء في آثار الرومي والنورسي والمقارنة بين منهج الشيخين الجليلين في دعوتهما للسلم.

الكلمات المفتاحية: الرومي، النورسي، السلم، الآخر، الطريقة، الشريعة.

* * *

A Comparative Study of the Methods of Rumi and Nursi in Da'wa and Establishing Peace with the Other

Abstract

Dr. Arif al-Zoghoul / Dr. Abdul Karim Ali Jaradat

Peace is one of the most important moral elements in the Sufi tradition. In Sufism peace is without conditions or return for all mankind regardless of a person's gender, color, race, religion or belief, peace in the Sufi path is preferred over power and coarseness because their effect is superficial and temporary while peace has deep and lasting effect of people's lives. Peace brings about peaceful co-existence with the other on basis of mutual respect and tolerance. Rumi and Nursi were keen to call for peace and tranquility. Their discourse was tolerant for all ideas and beliefs. Each of them, in accordance with his own methodology, was passionate to call for peace and reconciliation among Muslims and among all human beings. Rumi adopted the Sufi Way or Tariqah which is based on shari'a. According to Rumi, Tariqah is the solo path to gather people from different religions and sects. For him, it is very difficult to gather two people who belong to different ideologies by Shari'a, while it is easy to do that by the Tariqah. This discourse shows the liberal aspect of Sufism. In this manner, the Magi, the Brahma, the Christian, the Jew, the Muslim, and even the worshippers of idols are equal and can all participate in hearing and reciting remembrance of God or Zikr, silent or recited out loud. Coexistence between Muslims and Hindus in India might be a good example of what is discussed in this research. They are brothers in humanity and equal in the ways of Sufism. Nursi, who is influenced by Rumi, on the other hand, disagrees with him and relies on the Qur'an, the Sharia, reason and logic in his call for peace. Nevertheless, he does not forget Tariqah and its impact on establishing peace and brotherhood among Muslims. This research study examines the call for peace and brotherhood in the works of Rumi and Nursi and compares their approaches.

Keywords: Rumi, Nursi, peace, The Other, Method, Shariah.

* * *

مقدمة

إنّ انتشار الحروب والقتل والعنف في بعض المجتمعات وخاصة في منطقتنا مردّه الاختلاف الديني والمذهبي والقومي والسياسي ويجب السعي إلى إقرار السلام في هذه المجتمعات والتخلص من التمييز المذهبي والقومي فجاء التصوف الإسلامي المستمد من الشريعة الإسلامية ليعمل على فهم الأديان والمذاهب المختلفة، حيث نجد في العصور الإسلامية بعض الفِرق الصوفية شافعية وبعضها حنفية وأخرى حنبلية، بل إن البعض كان ظاهرياً والآخر شيعياً، وقلّما حدث اختلاف بين تلك الفرق لذلك كان الهدف الأساس للتصوف هو الوصول إلى السلام بين المسلمين وبين بني البشر والذي يعد أعلى مرتبة من السلم الاجتماعي والسياسي فالله عز وجل يدعونا إلى دار السلام ﴿واللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾يونس:٢٥ والإسلام في مجمله مأخوذ من السلام ومبني عليه فكيف له بأن يكون دين قتال وجدال؟! حتى إن الجهاد في الإسلام يحمل معانيا غير معنى قتال المعتدين لقوله عز وجل ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾العنكبوت:٦٩ فكل ما يتصل بعبادة الخالق هو جهاد وأعلى مراتبه الجهاد الأكبر وهو الجهاد مع النفس. وكما قال سيدنا إبراهيم عليه السلام فى دعائه ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾إبراهيم:٣٥ فطلب عليه السلام، السلمَ والأمن قبل التحصين من الشرك وهو دليل عميق على أن تحقيق الرخاء والسعادة في الكون قائم على وجود الأمن والسلم، الذي أمر بهما القرآن في غير آية: منها قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾. البقرة:٢٠٨

إن أسلوب التصوف يتبع الشريعة من الناحية النظرية أي الأسلوب الذي عينه الدين وهو التوحيد والطهارة والصلاة والصوم والحج والجهاد والزكاة وبيان المعاملات في الدنيا والحساب في الآخرة، أما من الناحية العملية فالتصوف "هي الطريقة التي يتحقق من خلالها إجراء هذه التشريعات وهذه المعاملات وهي التي تزين الأعمال بصفاء الضمائر وتهذيب الأخلاق من الملوثات كالرياء، والجفاء، والشرك الخفي، والحقد، والحسد، والمكر، والغرور"[3] و "يقتصر عمل الشريعة على هداية الناس إلى الطريق القويم أما الطريقة فهي السبيل للوصول إلى الحقيقة".[4]

إن الادعاءات والاتهامات التي توجه للتصوف من أنه ليس إلا التكدي والبطالة والكسل وتربية البطون والانزواء ما هي إلّا اتهامات باطلة فكل من يتصف بها من الصوفية فهو ليس منهم بل هو دخيل يعمل لمصلحته الدنيوية ولا يمكننا أن نعده من

الصوفية، فالصوفيون الحقيقيون انتقدوا وحاربوا هذه الظواهر التي كانت قلة من الدجالين والمنافقين يمتهنوها.

التصوف والتربية

إذا عرفنا التربية بأنها عملية لإكساب الإنسان الصفات الحسنة التي تمكنه من القيام بأعمال الحياة وتجعل منه إنسانًا مقبولًا لنفسه وللآخرين، فإن التصوف يعمل على إكساب الإنسان صفات وأعمال محببة يقول أبو محمد الحريري في التصوف ''هو التقرب من كل صفة حسنة وتجنب كل صفة سيئة''.[5]

إن الهدف الأصلي للتصوف هو تربية النفس وتأمين حرية الإنسان فالتربية الصوفية هي ''تجنب الغفلة عن الحقيقة''.[6] ولقد أخذت التربية الصوفية دعوتها للتعايش السلمي والصلح والسلام من الفكر الإسلامي الأصيل الذي أكدت عليه الآيات القرآنية والسنة النبوية قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان في الوقت الذي كانت فيه هذه المفاهيم غائبة عن أذهان البشر فمنع الإسلام الكراهية والحقد والعداء لأتباع الديانات الأخرى وضَمّن سبحانه وتعالى دعوته هذه في ثلاث مجموعات من آيات القرآن الكريم الأولى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾.البقرة:٢٥٦ والمجموعة الثانية تتضمن إتباع أسلوب المحبة والإحسان مع غير المسلمين وتحديد علاقات المسلمين وسلوكهم مع الأديان الأخرى، فلم ينههم عن معاداتهم فحسب بل أوجب عليهم معاملتهم بإحسان ومحبة ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.الممتحنة:٨ وتؤكد المجموعة الثالثة من هذه الآيات على التعايش السلمي مع الأديان الأخرى؛ فيجب محاورتهم على أساس التعقل والمنطق؛ لأن ذلك هو الأفضل والأكثر تأثيرًا من أسلوب الحدة والخشونة اللذين يولدان العصبيات الدينية لقوله تعالى: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.العنكبوت:٤٦

تصوف النورسي

وِلد النورسي ''لأب صوفي مشهور بورعه''[7]وبدأ النورسي حياته الدينية والعلمية كسائر أبناء عصره بالتتلمذ على يد كبار مشايخ الصوفية ولم يكن تدريس العلوم الشرعية في ذلك الزمان منفصلًا عن روح التصوف، فوجود كل واحد منهما مهم لوجود الآخر، إلا أن النورسي لم يكن مؤمنًا بالتصوف التقليدي الذي ينعزل به الإنسان عن البشر وينأى بنفسه عن حياتهم الاجتماعية والسياسية وعن همومهم، بل

كان من الداعين إلى إصلاح التصوف والتجديد فيه، ويُذكر أن النورسي أول ما ألف المثنوي العربي الأقرب إلى الروح والقلب والى روح التصوف كما هو المثنوي الفارسي، على خلاف رسائل النور التي استمدها من ضياء القرآن وتشريعاته ويذكر النورسي بأن مثنويه كان بمثابة ''مشتل رسائل النور وغراسها قد سعى فيه كالطرق الخفية إلى المعرفة الإلهية في تطهير الأنفس وداخل الإنسان فوفق إلى فتح الطريق بواسطة الروح والقلب''،[8] والمتمعن بتفاصيل حياة النورسي ومؤلفاته تنكشف له الصبغة الصوفية في شخصيته، وأكثر ما نشاهدها في مثنويه فهو يستخدم إشارات ورموز صوفية متعددة، وكان الإمام النورسي حريصًا على عدم تأسيس فرقة وطريقة صوفية، ولو فعل ذلك لتبعه الكثير وسلكت مسلكه الجماهير، فاختار الإمام النورسي طريق الشريعة التي تعتمد على الحجج العقلية والأدلة المنطقية ورجحها على الروحانيات؛ لأن الزمن كان زمن التحديات ويعتمد على العقل والمنطق والبرهان، فكان يقول لطلبته بأن'' يكونوا محققين كي يتمكنوا من الإثبات والإقناع، وان يكونوا أيضًا حكماء مدققين كي لا يفسدوا توازن الشريعة، وأن يكونوا بلغاء مقنعين كي يوافق كلامهم حاجات العصر، وعليهم أن يزنوا الأمور بميزان الشريعة''[9] فكانت الشريعة عنده هي المعيار الثابت لقياس الحقائق، فركز على التربية الشرعية مع طلابه لقناعته بعجز التصوف في ذلك الوقت عن مواجهة تحديات تلك المرحلة وعجزه أيضا عن تحقيق ما كان يربو إليه الإمام في دعوته، ولم يكن النورسي ليقبل بأن يطلق عليه لقبًا صوفيًا وذلك لما كان يراه من تصرفات البعض منهم المخالِفة لواقع دعوته ويؤكد ذلك بقوله'' أنا لست شيخًا صوفيًا، وإنما أنا عالم ديني، ولكني لم اقل لمن أتاني إلا أن الزمان ليس زمان الطريقة''،[10] ومع كل ما سلف فإنه لم يتنكر للطريقة ولم ينفها بل يذكر بأن'' أعلى مراتب الطريقة وأسمى درجات الحقيقة لا يعدوان كونهما أجزاء من كلية الشريعة، وهما دائمًا وأبدا يبقيان بحكم الخادم للشريعة ووسيلة إليها ومقدمة لها''،[11]وكل من يقول من المتصوفة ''أن الشريعة قشر ظاهري، وحقيقتها هي لبها ونتيجتها وغايتها'' فهو واهم، وأما المتصوفة الحقيقيون أهل الطريقة وأصحاب الحقيقة ''فإنهم كلما تقدموا في مسلكهم وارتقوا في معارجهم، وجدوا أنفسهم منجذبين أكثر إلى الحقائق الشرعية، متبعين لها، مندرجين ضمن غاياتها ومقاصدها''.[12]

وقد عمل الإمام النورسي على مهاجمة المتصوفة الذين غيبوا عقولهم في طرقهم، ونعتهم ''بالجهلاء المجذوبين الفاقدين للعقل''،[13] ويذكر النورسي أن'' التصوف، والطريقة، والولاية، والسير والسلوك حقيقة روحانية نورانية مقدسة، طافحة باللذة

والنشوة"[14] ودافع عن الطريقة الحقّه التي تخدم الشريعة وذكر فوائدها ويقول بأنه "لو صرفنا النظر عن النتائج السامية التي توصل إليها الطريقة سواء منها الدينية أو الأخروية أو الروحية، ونظرنا فقط إلى نتيجة واحدة منها ضمن نطاق العالم الإسلامي نرى أن الطريقة هي في مقدمة الوسائل الإيمانية التي توسع من الأخوة الإسلامية بين المسلمين وتبسط لواء رابطتها المقدسة في أرجاء العالم الإسلامي".[15] يؤكد النورسي في الاقتباس السابق بأن الطريقة هي أنجع وسيلة لتحقيق الإخوة بين المسلمين.

أهم مزالق التصوف عند النورسي

١- ترجيح بعض السالكين من الطرق الصوفية الولاية على النبوة.

٢- تفضيل قسم من المفرطين، الأولياء على الصحابة الكرام.

٣- ترجيح بعض المتطرفين والمتعصبين جدا للطريقة لأوراد طريقتهم وآدابها على أذكار السنة النبوية.

٤- إن بعض المتطرفين من أهل التصوف يظنون خطأ أن "الإلهام" بمرتبة "الوحي".

٥- تفضيل بعضهم الكرامات والأذواق والأنوار على فروض الدين.[16]

أهم ثمرات وفوائد الطريقة عند النورسي

١- ظهور الحقائق الإيمانية وانكشافها ووضوحها إلى درجة عين اليقين بواسطة الطريقة الصحيحة المستقيمة.

٢- هي تحقيق الوجود الحقيقي للإنسان بانسياق لطائفه جميعا إلى ما خلقت لأجله.

٣- التخلص من وحشة الانفراد والوحدة، والشعور بالأنس المعنوي في الحياة الدنيا.

٤- خلاص الإنسان من الوحشة الهائلة التي تكتنفه في حياته الدنيا؛ وذلك بما تقوم به الطريقة الصائبة الصافية من تفجير ينابيع محبة الله ومعرفته في الإيمان.

٥- الشعور بالحقائق اللطيفة في التكاليف الشرعية وتقديرها بواسطة القلب.

٦- نيل مقام التوكل، ودرجة الرضا، ومرتبة التسليم .

٧- نجاة الإنسان من الشرك الخفي والرياء والتصنع وأمثالها من الرذائل وذلك بالإخلاص الذي هو أهم شرط لدى سالك الطريقة واهم نتيجة لها.[17]

موقفه من المذاهب

في إحدى مخاطبات الإمام للناس يوصيهم بأنه إن كنتم تريدون حقا الحياة العزيزة، وترفضون الرضوخ لأغلال الذل والهوان، فأفيقوا من رقدتكم، وعودوا إلى رشدكم، وادخلوا القلعة الحصينة المقدسة: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾الحجرات:١٠ وحصنوا أنفسكم بها من أيدي أولئك الظلمة الذين يستغلون خلافاتكم الداخلية"[18] وكأنه رحمه الله يعيش في عصرنا ويصف حالنا كيف أن أعداء الدين أوقعوا الفتن المذهبية بين المسلمين وأوصلوهم إلى الذل والهوان.

ولا يرى الإمام النورسي أي مشكلة في تعدد المذاهب وهي بنظره على اختلاف وليس خلاف ومن الطبيعي أن يكون هناك آراء متعددة ولكن هدفها واحد وهو الوصول إلى الحقيقة "فتصادم الآراء ومناقشة الأفكار لأجل الحق وفي سبيل الوصول إلى الحقيقة إنما يكون عند اختلاف الوسائل مع الاتفاق في الأسس والغايات، فهذا النوع من الاختلاف يستطيع أن يقدم خدمة جليلة في الكشف عن الحقيقة وإظهار كل زاوية من زواياها بأجلى صور الوضوح، ولكن إن كانت المناقشة والبحث، عن الحقيقة لأجل أغراض شخصية وللتسلط والاستعلاء وإشباع شهوات نفوس فرعونية ونيل الشهرة وحب الظهور، فلا تلمع بارقة الحقيقة في هذا النوع من بسط الأفكار، بل تتولد شرارة الفتن، فلا تجد بين أمثال هؤلاء اتفاقا في المقصد والغاية، ذلك لأنه ليس من اجل الحق، فترى فيه الإفراط البالغ دون حدود، مما يفضي لانشقاقات غير قابلة للالتئام. وحاضر العالم شاهد على هذا."[19] وحرص النورسي على السلم بين أفراد البشر وحارب الظلم بشتى أنواعه وشدد بأن لا يحمل المؤمن لأخيه المؤمن أي حقد أو عداء مخاطبًا إياهم بقوله أن"خالقكما واحد، مالككما واحد، معبودكما واحد، رازقكما واحد... وهكذا واحد واحد إلى أن تبلغ الألف"،[20] ونبه أهل المسالك والمذاهب إلى اجتناب التعصب الأعمى "فعندما تعلم أنك على حق في سلوكك وأفكارك يجوز لك أن تقول" إن مسلكي حق أو هو أفضل "ولكن لا يجوز لك أن تقول: "أن الحق هو مسلكي أنا فحسب" لان نظرك الساخط وفكرك الكليل لن يكونا محكًا ولا حكمًا يفضي إلى بطلان المسالك الأخرى"،[21] ونبه إلى أن العناد والتنافر والتفرقة يصيبان الحياة الاجتماعية بضرر بالغ وأن الحديث النبوي الشريف "اختلاف أمتي رحمة" لا يعني التفرق والتحزب والاعتداد بالرأي، فالحقيقة تتظاهر جلية من تصادم الأفكار ومناقشة الآراء وتخالف العقول، وما هذا الاختلاف الذي ورد في الحديث النبوي الشريف إلا هو الاختلاف الايجابي البناء المثبت، ومعناه أن يسعى كل

واحد لترويج مسلكه وإظهار صحة وجهته وصواب نظرته، دون أن يحاول هدم مسالك الآخرين أو الطعن في وجهة نظرهم وإبطال مسلكهم، بل يكون سعيه لإكمال النقص ورأب الصدع والإصلاح ما استطاع إليه سبيلا، أما الاختلاف السلبي فهو محاولة كل واحد تخريب مسلك الآخرين وهدمه، ومبعثه الحقد والضغينة والعداوة، وهذا النوع من الاختلاف مردود أصلًا في نظر الحديث، حيث المتنازعون والمختلفون يعجزون عن القيام بأي عمل ايجابي بناء''.[22]

نظرته إلى التعصب القومي

لقد كان العلامة سعيد النورسي يبغض التعصب بكل أشكاله وشتى ألوانه فنفى عن نفسه صفة التعصب لقوميته الكردية لأن هذه القوميات من المفروض أنها تحللت في الإسلام ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، لذلك كانت نظرة النورسي للقومية السلبية والنظرة العنصرية ''نظرة السم القاتل وبأنها مرض أوربي خبيث سار، وذلك حسب الأمر النبوي الجازم بأن الإسلام يجب العصبية الجاهلية، ولقد بذلت ما وسعني من الجهد لعلاج هذا الداء الخبيث''.[23]

ويبين الشيخ الجليل بأن الله سبحانه وتعالى خلق الأمم والشعوب للتعارف وليس للتنافر فيقول في كتابه العزيز ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾،الحجرات:١٣ أي ''خلقناكم طوائف وقبائل وأمما وشعوبا كي يعرف بعضكم بعضا وتتعرفوا على علاقاتكم الاجتماعية، ولم نجعلكم قبائل وطوائف لتتناكروا فتتخاصموا''[24] وإن كانت الطائفة أو العرق يفرق بين بني البشر فهناك ألوف المشتركات تجمع بينهم'' فخالقهم واحد، ورازقهم واحد، ورسولهم واحد، وقبلتهم واحدة، وكتابهم واحد، وهكذا واحد، واحد... إلى الألوف من جهات الوحدة التي تقتضي الأخوة والمحبة والوحدة''،[25] وصنف النورسي القومية على نوعين نوع ''سلبي مشئوم مضر، يتربى وينمو بابتلاع الآخرين ويدوم بعداوة من سواه، ويتصرف بحذر. وهذا يولد المخاصمة والنزاع... وان التباغض والتنافر بين عناصر الإسلام وقبائله، بسبب من الفكر القومي، هلاك عظيم، وخطب جسيم''،[26] والنوع الآخر القومية الايجابية ''النابعة من حاجة داخلية للحياة الاجتماعية، وهي سبب للتعاون والتساند، وتحقق قوة نافعة للمجتمع، وتكون وسيلة لإسناد أكثر للأخوة الإسلامية، هذا الفكر الايجابي القومي، ينبغي أن يكون خادما للإسلام، وان يكون قلعة حصينة له، وسورا منيعا حوله، لا أن يحل محل الإسلام، ولا بديلا عنه''،[27] وقد دعا على الدوام إلى ''وحدة العقيدة ونبذ القوميات الزائفة''.[28]

السلم عند الرومي

إن الدين الإسلامي دين رحمة وشفقة ودين استدلال ومنطق وليس دين سيف وإجبار وإنّ نشرَ السلام والحق والعدل بالقوة يبقى عملًا سطحيًا، فلم تفلح القوة في دمج المخالفين للدين في إطار التربية الإسلامية الصحيحة، وبقيت عباداتهم بحدود التقليد، وبما أن العالم الآن أصبح قرية صغيرة فواجب علينا معاملة المخالفين بالمنطق والحوار المبنيين على السلام، وتتجلى هذه الدعوة بوضوح في أفكار الصوفية وتربيتهم، وإن أشهر من نادوا بهذه الدعوة من متصوفة الفرس هو مولانا جلال الدين الرومي، فهو من أهم من نادوا بتجديد الحياة الدينية وإحياء الكرامة الإنسانية وتمثل ذلك في أشعاره التي تشتمل المباحث التالية:

- الوعي الإنساني

يرى مولانا أن الإنسان لا يستطيع الحصول على حريته إلا إذا استطاع التحرر من الأسر الفكري التلقيني والتقليدي، والإنسان يمثل محور التصوف عند مولانا وليس عقيدته، لأن الإنسان نقطة ارتكاز الوجود، واعتبر مولانا الحروب والخلافات بين الأديان والمذاهب نتيجة لعدم المعرفة والنظرة السطحية، وباعتقاده أن الفرق بين المشرع والصوفي يكمن في أن المشرع يحكم من خلال سماعه أما الصوفي فيحكم من خلال سماعه ومشاهداته، فالصوفي يحكم على الأمور من خلالهما لذلك نجده على صلح دائم مع المشرع والحكيم والفيلسوف ويحول كل عداء أو خلاف إلى سلام وصفاء وصداقة فالجميع يتساوى في نظر الصوفية وبقول مولانا الجميع على صبغة الله التي صبغهم عليها:

صبغة الله هست خم رنگ هو پيسها يك رنگ گردد اندر او[29]

هي صبغة الله التي صبغها للبشر وكل ما هو مختلف هو واحد تحت اسمه.

في إشارة للآية القرآنية الكريمة: ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ﴾. البقرة:١٣٨

الأديان في نظر مولانا تشترك بالتوحيد وتشترك بعقيدة الموت والحشر والنشر والحساب والكتاب والمعاد وأن دعوة الأنبياء واحدة إلا أن الخلاف ظهر بين الأفراد وليس بين الأديان كما يقول مولانا:

نام احمد نام جمله أنبيا است چون كه صد آمد نودهم پيش ما ست[30]

إن اسم أحمد اسم لجملة الأنبياء فهو يمثل كل ما سبقه منهم.

لقد كان مولانا مؤمنًا بحرية الأديان واحترامها جميعا لقوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾. البقرة:٢٨٥

وكان يعتقد بأن كل هذه الحروب ليس لها أساس سوى الجهل والنفاق والأنانية وأن السلام الشامل وتساوي البشر ووحدة الأديان من أهم مرتكزات التربية الصوفية وأن الوطن والقومية ليس لهما أي معنى خاص في هذه التربية، فالوطن هو الحياة الأبدية التي ترتقي إليها الروح بعد فناء الجسد:

ما ز بالاييم وبالا می رویم
ما ز دریاییم ودریا می رویم
ما از آن جا واز این جا نیستیم
ما ز بی‌جاییم وبی‌جا می رویم
خوانده‌ای انا الیه راجعون
تا بدانی که کجاها می رویم[31]
نحن من العالم الاعلى وسنعود إليه
نحن من بحر الفيض وعائدون إليه
نحن من ذلك المكان ولسنا من هذا
نحن في اللامكان ونعود للمكان
اقرأ إنا إليه راجعون
تعلم إلى أين نحن ذاهبون

- الجنس والعرق:

التربية الصوفية في نظره ليست قائمة على الجنس والعرق أو على الاختلاف الديني والعقائدي لذلك نجد الحاكم والمحكوم والغني والفقير واليهودي والمسيحي والمسلم يجتمعون في مكان واحد دون أدنى تعصب؛ لذلك يجب القول بأن أهم عوامل إحلال السلام التحرر من قيود التعصب الديني والعقدي، حيث يرى مولانا أن هذه الاختلافات والألوان الدينية هي وليدة المجتمع البشري ومُحدثة في العالم الدنيوي أما في العالم الأخروي العالم الرباني فإن الوحدة هي الأساس ولا وجود لهذا الاختلاف، والإنسان إذا لم يتخلص من هذا اللون الديني والطائفي وتلقيناته سيبقى التعصب مذهبه لأنه استمد دينه عن طريق التقليد الأعمى والجهل فهو يتصور أن الاعتداء والكراهية لمن يخالفه هما اللذان يقربانه من الكمال في الدين، أما التربية

الصوفية فتمحو الألوان كلها وتوصل سالكها إلى العالم الإلهي الذي لا لون له، عندها يترفع الإنسان عن أي خلاف وعداء؛ لأن العالم الرباني هو عالم الوحدة ويتساوى فيه الجميع فالتسامح بين الناس ينبع من هذا الأساس.

لقد ذكر مولانا أن البشرية في عصره قد غرقت في بحور التعصب الديني والطائفي فكانت في زمانه الحروب الصليبية، وقتل المسلمين لبعضهم وحرق وهدم لمدارسهم وكانوا يتصورون أن ما يفعلونه هو في سبيل نصرة الإسلام وإرضاء لوجه الله عز وجل، إن ما ذكره مولانا ينطبق تماما على زمننا الحاضر؛ فالأديان والطوائف والمذاهب تتقاتل كلها في سبيل الله عز وجل وهو جلّ جلاله براء من عملهم هذا.

- الحب والعشق

ويرى مولانا جلال الدين أن أحد الأمور الأخرى ذات الأهمية الكبيرة في إحلال السلام هي تربية الإنسان على الحب والعشق فعندما يصبح الإنسان محبا عاشقا يتطهر من صفاته الذاتية ويصل إلى مرحلة الفناء فيتخلص من قيود الرغبات ويتسع وجوده ليتناسب مع وجود المعشوق الحقيقي وهو الخالق عز وجل فالعشق في تربية مولانا الصوفية باعث على الوحدة والسلام وإن كل هذه الاختلافات الموجودة بين الأديان ما هي إلا حجاب ظاهري يغطي صورة العشق الإلهي وكما يقول مولانا.

''العشق هو الذي يقرب المسافات ويزيل الاختلافات بين روحين متخاصمتين''.[32]

وقد كتب مولانا في الحب والعشق، يقول ''إن جميع المرضى يتمنون البرء من سقمهم، إلا أن مرضى الحب يستزيدون من المرض ويحبون أن يضاعف في ألمهم وحنينهم. لم أرَ شرابا أحلى من هذا السم، ولم أرَ صحة أفضل من هذه العلة، إنها علة ولكنها تُخلص من كل علة، فإذا أصيب بها الإنسان لم يصب بمرض قط، إنها صحة الروح، بل روح الصحة. يتمنى أصحاب النعيم أن يشتروها بنعمتهم ورخائهم.

أيها الحب بك القلب اشتغل يا طبيبا فيه تنزاح العلل

لم أرَ طاعة أفضل من هذا الإثم. إن الأعوام التي تنقضي بغيره لا تساوي ساعة من ساعات الحب''.

ويرى ''أن للحب شعلة إذا التهبت أحرقت كل ما سواه، فلا كبر، ولا خيلاء، ولا حزن، ولا حسد، ولا بخل، ولا عيب من عيوب النفس''.[33]

– أصل الإنسانية

عامل مهم آخر من عوامل إحلال السلام في التربية الصوفية في نظر مولانا هو التركيز على أصل الإنسانية فالاختلافات الواقعة بين البشر بسبب الدين والمعتقدات لا تتفق وفطرة الإنسان وأصل دعوة الأنبياء. فالحقيقة الإنسانية لا لَوْن دينيًا أو عقديًا لها وإن الأصل الإنساني هو القاسم المشترك الذي يجمع بين أفراد البشر فمن الصواب العودة لهذا الأصل؛ لأن الفطرة الإنسانية بعيدة كل البعد عن أي لون ديني أو عرقي أو طائفي، وقد سبق الصوفية الكثير من الفرق في هذا الأمر، فهم ينظرون إلى جميع الأديان والمذاهب والأعراق نظرة واحدة ولا يعادون أيا منها بقول مولانا:

از نظرگاه است ای مغز وجود،
اختلاف مومن وگبر وجهود.[34]

اعلم يا عقل الوجود أن الرأي هو سبب الاختلاف بين المسلم والمسيح واليهود.

إن نظر الإنسان القاصر لا يستطيع إدراك الحقيقة المطلقة أو فهمها كما هي، لذلك يلجأ للتأويل والتفسير ومن هنا فإن الاختلاف على الحقيقة يكون ناشئًا من اختلاف هذه التأويل.

منبسط بوديم ويک گوهر همه،
بی سر وبی پا بوديم آن سر همه.
يک گهر بوديم همچون آفتاب،
بی گره بوديم وصافی همچو آب.
چون به صورت آمد آن نور سره،
شد عدد چون سايه های کنگره.
کنگره ويران کنيد با منجنيق،
تا رود فرق از ميان اين فريق.[35]

كان الناس على فطرة واحدة وجوهر واحد، تدخّل العقل بحركة فضولية وغير سوية في عمل الروح وهمتها، فتعددت الآراء والأفكار وأصبح كل منها بمثابة قلعة تحجب الحقيقة، حطموا هذه القلاع حتى يزول الفرق بين هذا الفريق وذاك.

استنادا لما يقول مولانا، نحن البشر نشترك جميعا في أصل الإنسانية وإن الخلافات الموجودة بين عقائد البشر هي من صنع الشيطان الساكن في داخلنا والذي أبعدنا عن حقيقة وجودنا الإنساني كما يصف ذلك مولانا:

تفرقه در روح حيواني بود نفس واحد روح انساني بود[36]

إن التباين يكمن في الروح الحيوانية وإن الروح الواحدة تكمن في الإنسانية.

فالإنسان الذي لا يدرك قدر روحه الإنسانية وعظمتها وسعتها ليس بإنسان بل حيوان في حظيرة الدنيا ومن هنا وبسبب الوحدة الإنسانية ينتهي الخلاف بين الأديان، ولا يبقى خلاف بين البشر فكلها خلافات نسبية.

إن لمعرفة الأصل الإنساني دور كبير في تحقق السلام وأن الأنبياء هم الأصل الإنساني، لذلك لم نجد بينهم أي خلاف أو عداء وكانت رسالتهم واحدة وهي الصلح والسلام ووحدة البشرية من منطلق الإنسانية.

وبنظر مولانا فإنه لا يمكن أن يقع خلاف بين أصل الشريعة وأصل الطريقة؛ لأن الشريعة في نظره مقدمة للدخول في الطريقة، وإن التسامح وسيلة قوية لإقامة السلام بين الأديان والمذاهب ولا يمكن أن يتحقق التسامح إلا بالتعقل والتفكر:

چو فرمودهست حق كالصلح خير
رها كن ماجرا را اى يگانه.[37]

بما أن الحق سبحانه أمرنا بأن الصلح خير، فلم لا تترك العداء والتعصب لرأيك.

ويقول مولانا إنه إذا كانت الطرق مختلفة فالمقصود واحد، ألا ترى أن الطرق إلى الكعبة كثيرة فالناس تأتي من الروموالشاموالصين والهند واليمن والفرق بين هذه الطرق كبير وواسع، ولكن إذا نظرت إلى المقصود فهو واحد يجتمعون على محبته حيث تزول الخلافات والاتهامات التي كانت بينهم في الطريق من تكفير وإبطال للعقائد.

الأضداد في نظر مولانا مصيرها التوائم والتوافق والتصالح وهذا ضروري لاستمرار حياة البشر:

خشمهاى خلق ، بهر آشتى است دام راحت دائما بى راحتى است.[38]

الخلافات بين البشر تفضي إلى الصلح والتعاسة جاذبة للسعادة دائما.

المحبة وإصلاح النفس

ويدعو مولانا الناس إلى المحبة فهي السحر الذي يضمن استمرار حياة البشر:

از محبت تلخها شيرين شود
از محبت مسها زرين شود

المرارة تتحول إلى حلاوة بالمحبة
ويصبح النحاس ذهبًا بالمحبة أيضا
از محبت شاه بنده می شود
از محبت مرده زنده می شود
بالمحبة يصبح الملك عبدا
ويحيى بها الميت أيضا

ويتساءل مولانا كيف للإنسان الانشغال بمحاربة الآخرين وينسى نفسه التي هو في حرب دائمة معها فالأولى الانشغال بالنفس بدل الانشغال بالآخرين:

جنگ فعلی هست از جنگ نهان
زين تخالف آن تخالف را بدان
الحروب الواقعية ناتجة عن حروب النفس الخفية
فاعلم أن هذا الخلاف ناتجًا عن ذاك الخلاف
هست احوالم خلاف همديگر
هريكى با هم مخالف در اثر
إن أحوالي كلها مخالفة لبعضها
وكل اثر لها مخالف للآخر
موج لشكرهای احوالم ببين
هر يكى باديگرى در جنگ وكين
انظر إلى أحوالي كالجيوش تموج
وهي مع بعضها في عداء وحروب
می نگر در خود چنين جنگ گران
پس چه مشغولی به جنگ ديگران

لو نظرت إلى الحرب العظيمة الدائرة في نفسك، لما انشغلت بمحاربة من هم حولك.

الخاتمة

إن نظرة مولانا إلى السلم نظرة صوفية اجتماعية مستمدة من الشريعة الإسلامية، فالسلم عنده نابع من وحدة الأديان ووحدة الإنسان وما الحروب وسفك الدماء والظلم بين بني البشر إلا لجهلهم ونظرتهم الضيقة وبعدهم عن الحقيقة الربانية، لذلك

لن يتمكن الإنسان من إقامة علاقات إخوة وصداقة مع الآخر ما دام أسير تعصبه القومي والمذهبي.

وقد لخص مولانا نظرته حول الأديان والعقائد والاختلافات الناشئة بينها بقوله ''أن الدين في الأصل واحد وتفرع فنشبت الحروب بين الأفرع، وستعلمون يوم القيامة عندما تصبحون واحد وتنظرون إلى مكان واحد ويكون لسانكم واحد بأن دينكم واحد''.[39]

يحث مولانا الإنسان إلى نبذ التعصب والنظرة السطحية الضيقة ويدعوه إلى التسامح والعفو والإحسان والستر والتساهل، لتيقنه بأن هذه الأمور مجتمعة تساعد على تهيئة أرضية مناسبة لإقرار السلم الاجتماعي والتصالح بين بني البشر.

مجمل القول أن التصوف في نظر الرومي هو عامل ومقوم أساس من مقومات السلم الاجتماعي لأن الإنسان إذا كان في سلم مع ربه ونفسه فمن المؤكد أيضًا أنه سيكون في سلم مع الآخر، فاستخدم الطريقة لإثبات ما تحث عليه الشريعة من إقامة للسلم والسلام بين بني البشر.

ومع أن الإمام النورسي كان شديد الإعجاب بمولانا وأفكاره ومتأثرًا به، إلّا أنه اتبع منهجًا مغايرًا له في دعوته للسلم وقد يكون ذلك بسبب العصر والتحديات التي كانت في زمنه، زمن المادة المعتمد على البراهين والأدلة الحسية والمنطقية، وحاول النورسي في مناسبات عدة نفي صفة التصوف عن نفسه حتى لا يتوهم الناس بأنه صوفي ويضيع كل ما بناه على أساس الشريعة، ويتخذه الناس حجة لتغليب الطريقة على الشريعة بسبب تبنيه لها وعمله بها، فلم يكن راضيًا لأي مسلم بأن يكون جزءا خاملا وغير فعال في هذه الأمة، لذلك كان يوجه خطابه للعقل والروح والقلب معًا، ومما يذكر بأن التصوف في عصره وصل إلى حالة غير مرضيه فانتشر الدجل والكذب بين بعض المتصوفة وتناقضت أقوالهم مع أعمالهم مما أدى إلى كره الناس لهم، ولم يكن الإمام النورسي وهو الملم بالعلوم العقلية والنقلية منذ صغره أن يوجه النقد للمتصوفة إلّا بهدف الإصلاح، فاختار طريق الشريعة كأسلوب مباشر لحض الناس على الإخوة والسلم ونبذ التعصب، بينما عاش جلال الدين الرومي في عصر غلب عليه طابع التصوف فاتبع الطريقة في دعوته للناس إلى السلم، ولم يغفل عن الشريعة وعن أهميتها في إقامة السلم بين بني البشر وعدّها الأساس، وأكد في مثنويه على التلازم الوثيق بين الشريعة والطريقة وأهتم بهما معًا إلّا أن دعوته للسلم مع الآخر

كانت بواسطة الطريقة المستمدة من الشريعة فكان الشرع بالنسبة له كالمصباح الذي تحمله الطريقة في سعيها للوصول إلى الحقيقة.

* * *

الهوامش

[1] أستاذ مشارك في اللغة الفارسية وآدابها، جامعة اليرموك الأردنية.
[2] أستاذ مشارك في اللغة الفارسية وآدابها، جامعة آل البيت الأردنية.
[3] التصفية في أحوال المتصوفة (صوفي نامه)، قطب الدين أبو المظفر بن اردشير العبادي، ص١٧.
[4] تاريخ التصوف، قاسم غني، ص ٢٥٨.
[5] مناقب الصوفية، قطب الدين عبادي المروزي، ص٣٣.
[6] شرح فصوص الحكم، خواجه محمد بارسا، تحقيق جليل نجاد، ص ٤٥٩.
[7] النورسي، سعيد، رسائل النور، السيرة الذاتية، ط٢، إعداد وترجمة: إحسان قاسم الصالحي، القاهرة، سوزلر للنشر، ١٩٩٨، ص٣٥.
[8] المثنوى العربي، ص ٤٩.
[9] الطنطاوي، عبدالله، منهج الإصلاح والتغيير عند النورسي، دار العلم، دمشق، ص٦٣.
[10] النورسي، سعيد، كليات رسائل النور، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، مصر، ط٣، ٢٠٠١، ص٥٨٣.
[11] كليات رسائل النور، ص٧٩.
[12] كليات رسائل النور، ص ٥٨٤.
[13] كليات رسائل النور، ص ٥٦٦.
[14] كليات رسائل النور، ص ٥٧١.
[15] كليات رسائل النور، ص ٥٧٤.
[16] كليات رسائل النور، ص ٥٩٠.
[17] كليات رسائل النور، ص ٥٩٢.
[18] كليات رسائل النور، ص ٣٥٠.
[19] كليات رسائل النور، ص٣٤٧-٣٤٨.
[20] كليات رسائل النور، ص ٣٤١.
[21] كليات رسائل النور، ص٣٤٢.
[22] كليات رسائل النور، ص ٣٤٧.
[23] كليات رسائل النور، ص ٧٩.
[24] كليات رسائل النور، ص ٤١٣.
[25] كليات رسائل النور، ص ٤١٤.
[26] كليات رسائل النور، ص ٤١٤-٤١٥.
[27] كليات رسائل النور، ص ٤١٥.
[28] سعود جاسم، ليث، الإمام النورسي والتعامل الدعوي مع القوميات الزائفة، الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا، ص١٧.
[29] مولوى، جلال الدين محمد، مثنوى معنوى، به كوشش توفيق سبحانى، بيت ١٠٦٣.
[30] مولوى، جلال الدين محمد، مثنوى معنوى، به كوشش توفيق سبحانى، ص ٤٨.
[31] مولوى، غزليات شمس، فروزانفر، طهران، غزل ١٦٧٣.

[32] زرين كوب، عبدالحسين، بحر در كوزه، ص ٢٨٨.
[33] حكايات وعبر من المثنوي، جلال الدين الرومي، السيد محمد جمال الهاشمي، ص٣٢.
[34] مثنوى معنوى، دفتر سوم، بيت ١٢٥٨.
[35] مثنوي معنوي، دفتر دوم، ص ٦٣٤.
[36] مثنوي معنوي، دفتر ششم، ص ١٢٣.
[37] مولي، غزليات شمس، تحقيق فروزانفر، غزل ٢٣٤٥.
[38] جلال الدين الرومي، المثنوي المعنوي، المجلد الثالث، ص٣٢٦.
[39] جلال الدين الرومي، فيه ما فيه، ص ٤٣.